لم يطل الامر بالجماهير ان اكتشفت ان هذه الافلام لا تمس القضية الفلسطينية، وانما هي استعراضات لمغامرات « كاوبوي » عربي ، او نسخ سيئة عن مغامرات العسكرية الامريكية في كوريا وغيرها وان طرحت باطار عربي مزيف . لقد كان هناك فارق واحد بين هذه النسخ العربية والاصل الامريكي والطلياني ، وهو ان النسخ العربية كانت تفتقد الى اية براعة في التصوير او الاخراج او التمثيل. لهذا من المتوقع جدا ، من المنتج — الذي يشكل الربح مبرر دخوله الميدان السينمائي — ان يلجأ الى انتاج افلام تتصدى للبضاعة الرائجة في السوق ، وقد كانت الافلام التي تتناول القضية الفلسطينية لفترة من الزمن مجرد سلع ، وهكذا شهدنا هذا الفيض من الافلام التي تناوب عليها المنتجون بين لبنان وسوريا .

على ان هذا الواقع لا ينفي وجود محاولات جدية وواعية لطرح القضية الفلسطينية ، هذه المحاولات عانت وما تزال من غياب البرمجة الاعلامية والوضوح في المعالجة ، والتي تنعكس على الافلام الملتزمة بالقضية والتي تتصدى لها بجدية ، لذلك أرى ان هناك عددا من المداخل لمعالجة القضية الفلسطينية سينمائيا . وهذا يعتمد على توجهاتنا للمخاطبة السينمائية ، فمن الممكن ان ننتج فيلما للمشاهد العربي وآخر لغير العربي. وهناك امكانية لصنع فيلم يشاهده الجميع، اضافة الى هذا كله نلاحظ الحاجة الى الفيلم التلفزيوني الذي يخاطب الاسرائيلي بالذات ، فمن المؤسف ان لا يكون بوسعنا ان ننفذ الى قلب المجتمع الاسرائيلي ونحاربه في مكمنه بواسطة الافلام التسجيلية والوثائقية التي تفضح الادعاءات الاسرائيلية عبر التلفزيونات العربية المجاورة ، لكن شيئا من هذا لم يحصل . واخيرا اسجل ان الفيلم الوثائقي القصير كان ابرز المحاولات السينمائية الجادة .

قيس الزبيدي : سأحاول ان اضيف الى ما أورده كريستيان وفيصل بعض الملاحظات ، اذ ان مسألة انصراف الفيلم العربي عن المواضيع التقليدية التي كان يعالجها دائما ، الى القضية الفلسطينية كان دافعها هو شباك التذاكر ايضا . كذلك هناك ظاهرة اخرى يمكن رصدها اذ بالاضافة الى تحول المنتج التقليدي الى هذا الاتجاه ، فقد استدعت حاجات السوق دخول منتجين تجار جدد ، وبشكل خاص في سوريه ولبنان . وهذا يمكن ان يفسر الرداءة في النوعية ، ان خبرة هؤلاء في المعالجة السينمائية — اذا سلمنا بوجودها — لم تستمد من الواقع الفلسطيني ، والصراع الدائر على ارض الواقع ، وانما استمدت من مشاهدة الافلام الامريكية و« الوسترن » الايطالي التي استعيرت بأسوأ شكل والصقت على المواضيع الفلسطينية . كما اننا لا يمكن عزل السمة الاساسية التي ميزت الفيلم العربي في تناوله لمواضيع فلسطينية عن طبيعة هذا الفيلم تاريخيا ، وهي الطبيعة الناشئة عن صلة السينما العربية بشباك التذاكر وليس بالواقع . ان شباك التذاكر هو القانون المحرك للسينما ، وهو الذي يحدد نوعيتها . وقد حافظ الفيلم العربي على هذا القانون وعلى هذه التقاليد حتى في تناوله لقضية مقدسة عند الجماهير وعند المتعاملين بالفن وهي قضية فلسطين .

في مجال السينما الروائية جرت محاولات غير مبرمجة ، وبشكل خاص في سورية ، وربما كانت المؤسسة العامة للسينما في سوريه لعدد من الاعتبارات ، اكثر المؤسسات انتباها لانتاج افلام متصلة بالقضية الفلسطينية . وكانت اول محاولة جادة في هذا النطاق، فيلم « رجال تحت الشمس » ويمكن تقييم هذا الفيلم بأشكال عديدة ، بيد ان القيمة الاساسية للفيلم انه اهم الافلام تناولا للقضية الفلسطينية بطموح فني وسياسي . هناك محاولات اخرى اعتمدت على اعمال روائية وقصصية مثل فيلم « السكين » لخالد حمادة ، و« المخدوعون » لتوفيق صالح .. الخ هذه المحاولات رغم كل التقييمات الصارمة التي تمت وسوف تتم ، تبقى الاكثر جدية في معالجة القضية الفلسطينية من هذا الجانب او ذاك .

لكن في رايي ان الفرصة الذهبية للقضية الفلسطينية كانت وما تزال في الفيلم الوثائقي وليس في الفيلم الروائي ، وذلك على مختلف المستويات السياسية والنضالية والاعلامية ، اذ ان الفيلم الروائي ، حتى في حالاته الجيدة ، يبقى أسير تقاليد درامية يمكن ان لا تكون في هذه المرحلة كافية لطرح القضية بالمستوى المطلوب . من هنا ارى ان محاولة كريستيان غازي مهمة ، بالرغم من قصورها ، الذي يعود الى الاوضاع التي واكبت انتاجه ، وهي محاولة مهمة لانه ابتعد عن الاطار السينمائي الدرامي القاصر ، وحاول ان يجد